رباعيات الزعبوط

© دار خـــــــان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٥
رقم الإيداع ٥٦٢٤٨ / ٢٠١٥
ISBN: 978 - 977 - 6299 - 90 - 26
دار خـــــــان
ص.ب: ١٣٢ رمسيس-القاهرة- مصر
هاتف: ٠١٠٠٥٥٣٩٤٧٢
E-mail: Darkhan.egypt@gmail.com
Dar Khan
P.O.Box 132 Ramses-Cairo-Egypt
Tel.:01005539472

سلسلة إبداعات عربية

رباعيات الزعبوط

تأليف/ خالد طوبار

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

خالد طوبار

رباعيات الزعبوط

دار خان
DarKhan

في كل مكان رأيت الزهور
على النواصي وفوق القبور
وما زالت أتعجب من الزهور
ولا أعرف ماهيتها في الوجود!

وراء الأبواب حكايات جديدة
قصص حياة تعيسة وسعيدة
يا نفس دقي على الأبواب مثابرة
ولتقف أمامك نفس الحوائط المماثلة!

استيقظ يا وجه المشؤوم
الحرب اندلعت
استيقظ يا نائم في الزعبوط
شروط السلام قد حلت!

وقال الزعبوط: يا بني
وما عسى الناس أن تفعل فيَّ
وليكن قبري مسترحًا يجلسون عليه
وإن بصقوا فسأكون أنا بعيد ناءٍ!

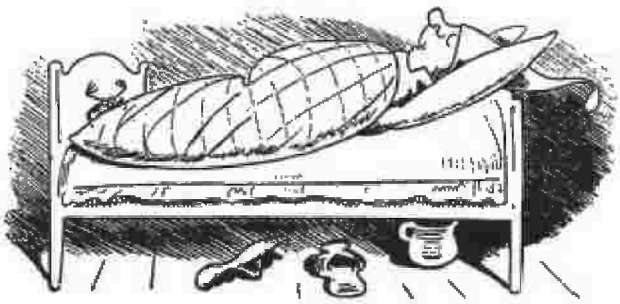

يا زعبوط نم واسترح واحلم أحلام عفية
سنجد في الطريق المعنى: حب القوة
اسمًا مستعارًا للقلوب المرتشية
ودواءً فزيائيًا لكل الآلام الميتافيزقية!

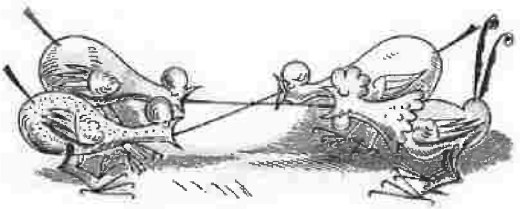

وقال الزعبوط: لابد أن تراقب الديوك
وسمنة ريشهم المنفوش في العراك
وتابع مستقبل مصيرهم في العناد
ووصولهم في النهاية إلى الأطباق!

الموت يقف وراء الحجرة الفولاذية
مثل ثور نطحت كل الحوائط
سقطتُ غارقًا في دمائي
والموت دخل هادئًا بدون كلام!

وقال العارف: لا يوجد ثابت فكل الأشياء تتغير
وما يحكي عنه الفلاسفة من حكمة تتبدل
ولكني وجدت في كل العصور قوانين كالسيوف
تضرب الأعناق وتجعل الأنام تخاف!

قالوا إن المسيح صلب وضحى بنفسه
والآنام آمنت به وعنه بكلمة
«الحب» قارب للنجاة سينقذنا
أما الصلب فقد استمر بعده بهمة!

فتجينشتين ود أن يصمت
فاللغة مثل نظرية أينشتين
فتجينشتين كتب كتبًا
والناس صم بكم!

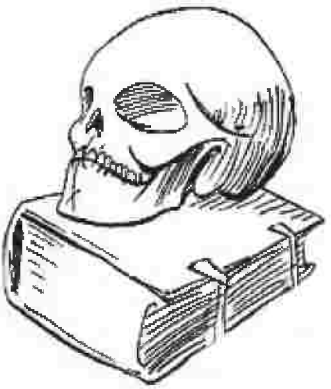

من أجل الحياة قطعت مسافات بعيدة
بين الشوارع والبيوت والصحاري
ما بين بدء وانتهاء أبحث عن الحب والحقيقة
فلم أجد عبر الطريق عودة للبداية!

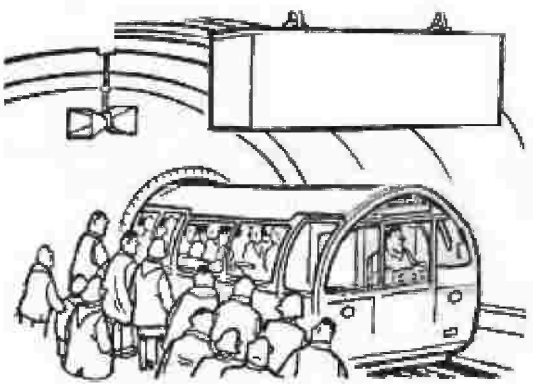

قل يا بني! ليخرج الترام من الأرض

«هايلا هوب» كرر الولد للجد

وسألت: أيخرج ابن آدم من العدم أم من الأرض؟

«هايلا هوب» أيعود ابن آدم للا شيء أم للتراب بالحق؟

استيقظ حتى لا تذهب إلى المدرسة متأخرًا
خرجت إلى الشارع وجرى الوقت مسرعًا
وفي الطريق بحثت عن عقيدة وزوجة
وتتحسست شيب شعري وصلعتي بعد العودة!

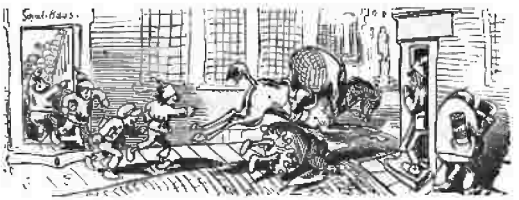

في الصباح يتناولون الإفطار ويزحفون على البطون للخندق
لأن الأفق مليء بالرياح والدخان يجعل الكل يترنح
في كل مكان على الأرض يمكثون خائفين
لا أحد يخرج! والكل يصيح آمين!

قال الساحر: «در يا صندوق الدنيا در» فاختفي الحمام!
ضحك، فظنته الناس هُدىَ ثم أخرج الحمام من الأكمام
آه لو يعرفون، إن دار صندوق الدنيا للأمام وللوراء
فتح الساحر الصندوق ونظر، فضاع في الحياة هباء!

طريق الحياة سماوي وأرضي
إنساني وقردي يمينًا ويسارًا
ما بين هذا وذاك نقص وكمال
أين الطريق؟ الكل يكرر نفس السؤال!

صرخ الجمهور بصوت عال للمتادور
أمسك حربتك! أرمي بها ضد الثور
لكنه لا يري غير الأبيض والأسود
حيوان! لا يعرف اللون الأحمر!

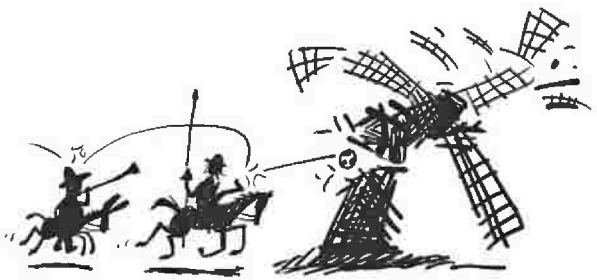

روزينت! احملي الفارس المجنون إلى الطاحونة
ارمي به هناك وصهللي واجري حول البرج
اتركي دونكيشوت في ناره وابحثي عن أفكار تعقل
فالحياة لا تعرف كلمات صناديد ولا بطولات تذكر!

قال العارف إياك أن تخاطب اللاشيء أو تسأل
لما الصحاري في اليد بدون نهاية وتبدو للعين بحد
وتعجبت وسألت: لِمَ ينبض قلب الإنسان خواء؟
ثم يظهر في الصورة بمثالية وسعادة وهدوء!

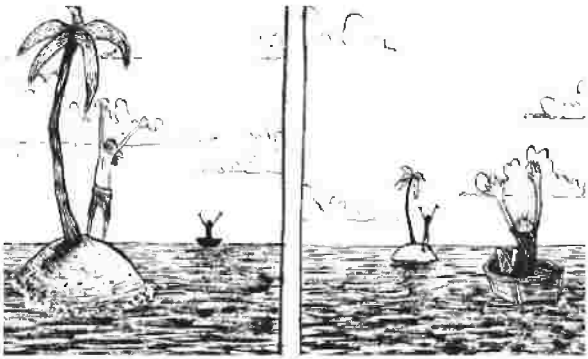

غرق مركبي ولم يتبقى معي غير الأمل
للأمام أو للخلف ضد الأمواج تحت المطر
ضد الموت أود الوصول إلى أرض واصرخ:
الحمد لله أن لكل فعل رد فعل معاكس!

أريد أن أكون طفلاً في هذه الحياة المجنونة
أبحلق في الناس بدون حرج فيبتسمون في الحال
آكل في الترام قطعة من الخبز وأقرقضها
أصرخ: نزلني هنا لتقضي طبيعتي حاجتها!

وأيضًا للزمان خزانات كبيرة
يغلق فيها جيوشًا ونظريات عتيقة
ثم يتصيد المعاتية في مسيرة الخنازير
ويفسح لآخرين مرحبًا بهم في الطريق!

لبن وزبادي وقشدة بيضاء وجبن
كوكاكولا وشوكولاته وعين جمل وزبد
«سأبتلعك» قال النظام للنشاز وصرخ
«أنظر حولك» .. هرب النشاز في لحظة!

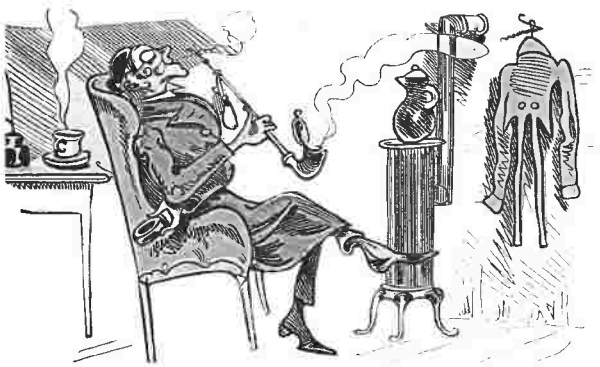

مثل قشور الطلح الملقاة تلك العشرينيات الذهبية
وإذا رأيت التسعينيات ستجدها على نفس النحو
وراء الإعلانات شقاء مدفون وملايين تبحث عن الحق
وعلى المقاهي تشتغل أفواه فارغة مطاطية بالصبر!

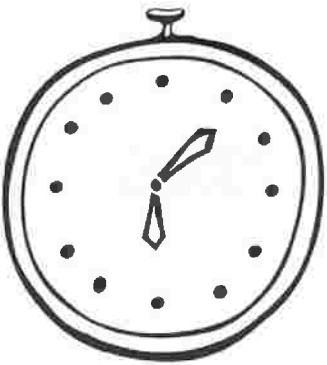

مثل الزمان يا صديقي سريع وغريب
عادي وشافي ومتوحش وعجيب
مانع وغدار ومسالم وحبيب
مثل الزمان تكون ناسه أكيد!

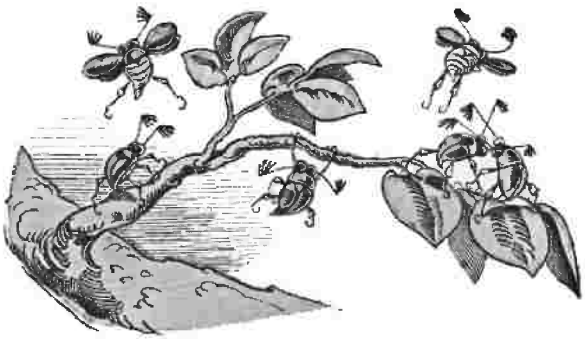

قوه النمل وزاد الأسد، كل الأشياء تتعلق فوق مشجبها
هي التي ابتكرت العلم والمعامل والفلسفة لنفسها
الحرب والانتصارات والحضارة في جذورها مغروسة
والإنسان يهز رأسه مستنكرًا «إنها الطبيعة المحروسة!»

اللاهون من الناس دخلوا الدهليز وهوسوا بنفوسهم
ارتدت أصداء كلماتهم مرة أخرى إلى آذانهم
وشاهدوا في المرايا جنون وانتفاخ وجوههم
وخرجوا ضائعين يعانون مرارة حياتهم!

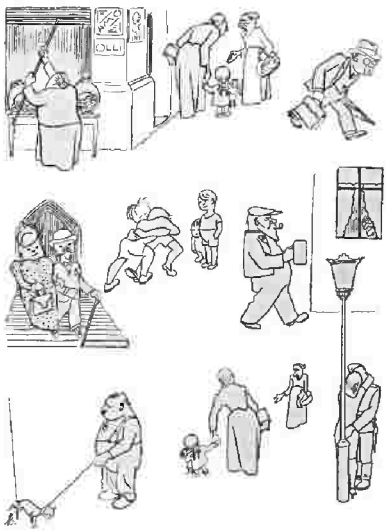

وكيف استطعت أن تزيح اللوم لهم
الذين لا يبحثون عن معنى لحياتهم
ويضعون في الطوفان نظارة شمسية وقبعة
ويظنون أنهم عرفوا الحياة على أصلها!

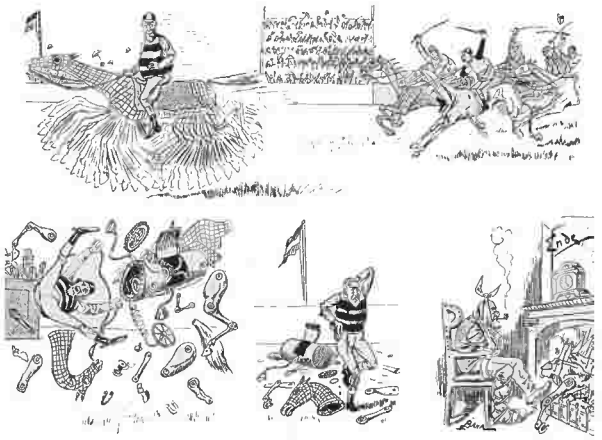

منذ أزمنة سحيقة تنادي أصوات «فليحيا الشعب»
«يسقط الحكم» «لنا فقط تكون الكلمة والحق»
ومنذ أزمنة أبعد تغمز عيون السلطة القوية
تردد: «تخلصوا من الكبت، ابحثوا عن الحرية!»

إياك أن تظن أن الأمور بالأمس كانت مختلفة
ففي الأعياد ارتدى فرعون وقيصر أزياءً منحرفة
والكل مس السماء تحت المطر وغنى أغاني تافهة
وتشتت الجمع ليعودوا إلى أربعة حوائط مُحكمة!

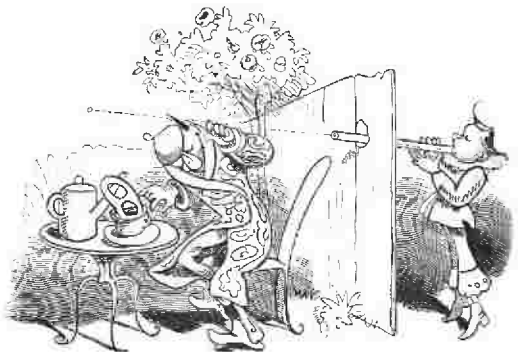

دق شيء على قلبي ورمي بالكلمات
«أخرج وابحث عن أصلك بين الغابات
والعب مع الناس بديموقراطية الطلقات
وشاركهم دموع التماسيح واحتفال الآفات!»

أعصر حظك كثمار البرتقال

فعند الحاجة يمد الجميع أيديهم للسؤال

وفي المهرجان يُخدع الجميع من زيف الملابس الملونة

فتعود لتبحث في تلال من الفوضى عن أنظمة!

من ذا الذي يلحظ الليل وتغيره للصباح؟
والتحول يحدث والجميع نيام تحت الغطاء
وفي الصباح يظنون أن الشمس صناعة مجهزة
صنعت في الظلام حينما غرقت الأنفس في نومها!

والليالي أيضا ستظل نسبية
تظهر للناس سيئة كانت أم مثالية
كإشعال وإطفاء الشموع في أعياد الميلاد
ولنفسها تتجرد فتكون ليالٍ بميعاد!

الكل يبحث في قاربه عن شاطئ الهداية
فالحياة بحر كبير دون نهاية
والرياح تهب وترسم أمالاً وخيالات
والبوصلة لا تعرض إلا اتجاهات!

وفي الحرب تذكرت داروين والأجناس
والأسد والكلب والثعبان والنسناس
وسألت: لماذا لم تقتل القرود مليون قرد؟
مع أنهم كانوا قبائل وعرفوا معنى الحرب!

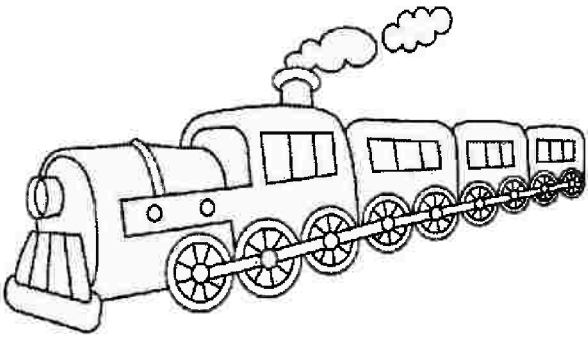

وسأظل أسافر بالقطار في كل مكان
وأسمع تحت الأنفاق صوتًا مدفونًا لأوكارديون
وأرى البولدوزرات تهدم بيتًا قديمًا في ميدان
وأراقبهم يحولون الأجداد إلى حوائط وحطام!

وإن كان تغير الزمان في حساباتنا ثابتًا محسوبًا
فلم لا يكون لنفسه فقط ثابت غير منسوب؟!
وإذا كان للإنسان في حياته بداية ونهاية
فلمَ لا يكون في مماته خالدًا في الوجود؟!

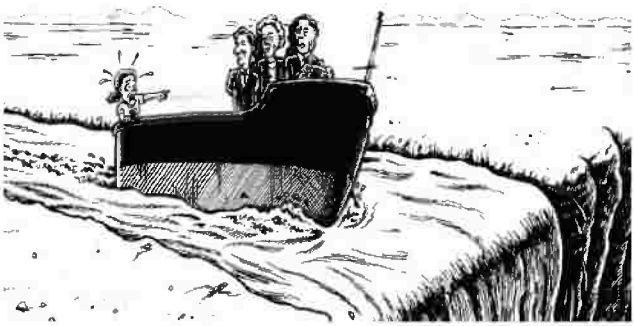

هل عدم تكرار المتعة هو سبب نهايتها في الإجازات؟

هذا غريق تحملق فيه العيون الخائفة من مصيفين ومصيفات

راقدًا متحديًا مرور حظه في الحياة والممات

وما بين تعدي الخوف وكبته تجد علة كل الأسباب!

معابد خضراء تطرح زهورًا وبالونات
وأطفال من الصحراء تلعب لعبة الاستخفاء
والزمان ينفخ الأشياء كلها رمادًا في الهواء
ومازلت بذوره مفعمة بالحياة والدواء!

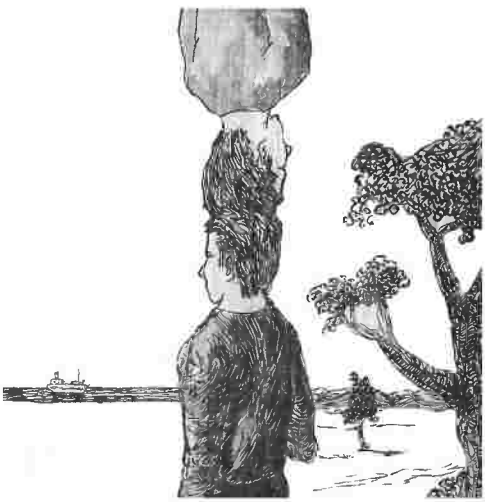

قال العجوز: هذه الدنيا نقطة تتوسط هذا وذاك
وطريق شاق له حدان معكوسان. نعوي عليه
كلاب على شاطئ بحر يلتهمه المساء
بين رمال خادعة ومياه دون ضياء!

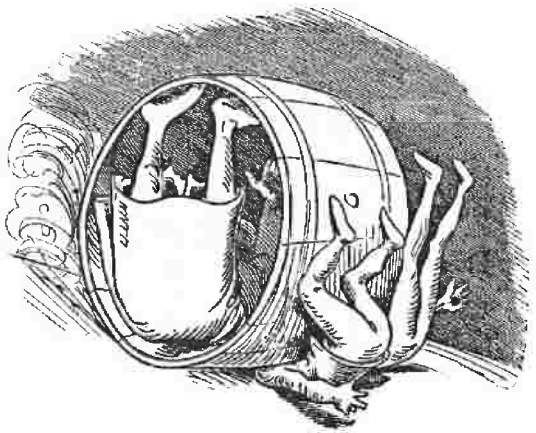

أعرفه رجلاً عاش يفتش عن معنى الحياة
وقال لافظًا أنفاسه: وما الحزن في العدم
الجميع يعيشون كالأحجار
يلعقون على الطاحونة ما بصقه الأجداد!

وفي العيون تعرف الصريح المدفون
وفي الضحكة تقيس الروح دستور
فلمَ نعبد القناع على الوجه موضوع؟
ونقرأ خطوطه كأنها أثر أو مخطوط!

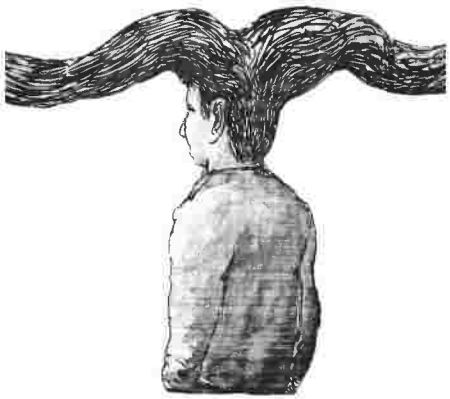

مُر ..حلو .. طعم الكوكتيل
تمام مثل حياتي.. تمامًا مثل حياتك
تمامًا مثلي!
تمامًا مثلك!

ثمانيات

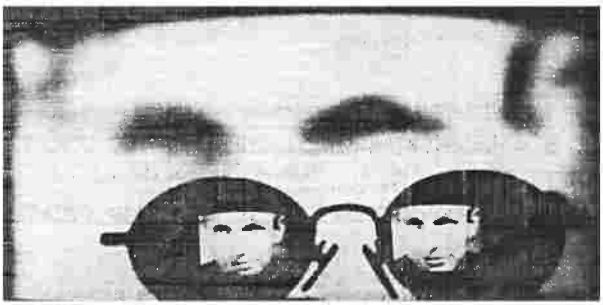

له شيم يمجدها العالم من قبل ومن بعد الألفين
أهيف، غبي وغني، من نسل سياسي
متعجرف يتحدث عن الخير، مقبل على غزو العالمين
بصليب علم غريب وكلام معسول عن الدين
لا يهم! فلا أحد يصدقه، لأن الجميع على صراط مستقيم،
سائرين في خدمة أصحاب القدرة
وعبدة الأقلام والأصوات يستعينون بصنع الكولاجات
يغطون بها بربرية هذا العالم المتمسكن!

حينما سكنت الشرق تعجبت من منطق الأبيض والأسود
فأسلمت وجهي متسللا نحو مكان غربي
وفوق الحدود اصطدمت بخوازيق بيضاء
تناسب أهل الجنوب، أهل الشرق
فتضرعت بحبيبة شقراء وأطفال ملونين
حماية من شبح تافه يطاردني طوال العمر
وحينما توقفت لمجابهته
وجدته يبول بالطريق!

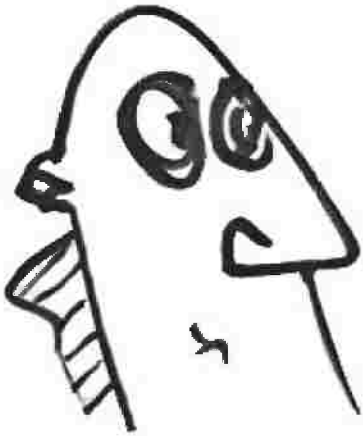

صعدَت معنا رائحته إلى الباص لتعكر صفاء هواء ديسمبر
مخمور برليني، يعرّفنا بلحمه ويغزل منولوجا فوق الآذان
يصرخ باتهامات عن الفاشية وينعت نفسه بصفات إنسانية
يتحدث عن اغتيالات سياسية وأموال في عالم لا يعرف العدل
عن نهود جميلات تخطفها جيوب الميسورين، يسألنا عن الحل!
نصمت في غل، فتتحجر عيوننا في خجل نحو اللاشيء.
يترنح هابطا فتمطره السماء بأقطان مائية.. تختفي الرائحة
ولكنها تترك في أنفاسنا عفنا.. سُلٌّ يطاردنا في الأجساد والأمكنة!

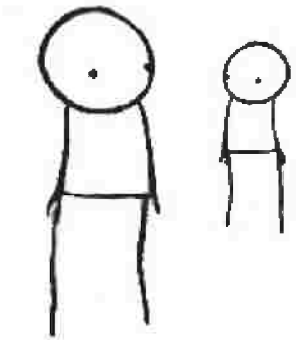

قابلته مرتين منذ الثمانينيات، في دمشق كنا في الثلاثين، وفي لندن قفزنا نحو الأربعين
كم تعلقت عيناه بلوحاتي، ساعات تدوران بالمديح للألوان، دهشة بصرية تذكره بالأحلام
والآن يدير مركزا للحضارة، نسر يعيش على أنقاض برجي سبتمبر، يدير الحوار من روما
جئته من بعيد محملا بلوحاتي، صقيع عينيه تجمد، يطرد الأحلام بدخان سيجارة، يلفق الكلمات:
صراع الحضارات، أولويات، وحوار الطلقات، كلام يضيق بانشغالاته في المساء
تركته كي أبعثر أيامي الثلاثة في الغرفة الرخيصة أو ما بين الشوارع والحانات،
وفي ليلتي الأخيرة شاهدته يدير حوارا للحضارات، يقرب بين المسافات، يلتهم بخطواته الطريق
يدق بحذائه فوق أرضية مكحلة بالسواد وعلى باب ماخور استقبلته غانية آسيوية شقراء!

السيد كارل صانع أزياء، خالق للصيحات، يظهر في التلفاز، يقهقه
يمسح شعره بكفه، يعدل نظارته الشمسية، يقول أنه عاشق للخير؛
يصلُ من قطعه، يعطي من حرمه، يعفو عمن ظلمه، جواد في ملكه
أسمع صوته، وجه ملفوف في أساور قطنية، حادث أليم!
السيد كارل يتأوه خلف الحائط المجاور، يصرخ، يسارع
يتلهف لنداء الأطباء، يلعن ويسب، يا له من مسكين!
قلق، يهدد بإحضار المحامي، يقبع في أرقه ويضع يده على خده
يخفي شيئا في جلده ويرخي بعينيه مطاطية الخير التلفازي!

ماتيلدا تكتب للبسطاء، رويات غرامية وقصص من بقاع الخيال
عالم الفائزين: أطباء وجميلات، جنات ماتيلدا على الطرقات
طوفان أوديسي يغرق الأسواق ثم ينحصر فوق عالمها على شاطئ ماتيلدا
ينكمش كقطرات فوق الخدين في بيت قابع تحت أقدام جبال الألب
ماتيلدا عجوز وحيد في الستين، مات الزوج أثناء الحرب
وفقدت الابن في حادث أليم وما زالت تتفاوض مع العَجز
تحيي وتميت من وهم الحكايات، رسام كهل وعاشقات باريسيات
فاتنات وأحلام لا تستر عورة ماتيلدا، لا تستر عورة البسطاء!

يا بني هل تعرف كم رقصت فوق الأيام
أخطو عبر الأنغام ببطن مترهلة وساقين نحيفتين
أصرخ وحيدا ثم أنزوي متناسيا الهم
وأحيانا أضع كفي فوق خدي متحيراً في هؤلاء:
المنافقين، ينهشوننا ثم يعوون متلذذين.
ما أجمل طعم البشر حينما يطبخون ويؤكلون
ما أشهى القلوب والأكباد فوق الأطباق كوجبات شهية
ولكني يا بني أمقت فن الطهي وأعشق الرقصِ رفيقا عبر الأيام!

قبل ليلة العيد بأيام حدث شيء غريب لبُلبُل، وحملته أمه إلى التاكسي
فصديقنا له رأس مغولي ووجه مفزع ويجيد حراسة مرمانا
يخيف مهاجمينا بصرخاته ولُعابه المتساقط ثم يقفز فوق الكرة منبطحا
يجلس وحده على الرصيف بعد اللعب يهذي ثم يبتسم في خجل
قالوا أن بُلبُل قد انشطر جسده إلى آلاف الذرات ليحرز الأهداف
وفي ليلة العيد ذهبنا نلعب في الخواء وأحرز كل منا هدفا
هرعنا عائدين ثم التقينا بعد عشرين عاما في معزي أمه
تلاقت عيوننا في صمت وتذكرنا وجهه الضاحك آنذاك من فوق المقابر!

أقسم بالأمل الغائب أنه مسكين لا يفهم لغة الجسد
صديقي بيللو له وجه قاتم ونظريات عدمية عن العالم
يسخن المشروبات الغازية ويفند الحكمة والعقائد بكلام لاذع
يدهن الحوائط الخضراء والحمراء باللون الأسود ثم يقول أنه فاشل
وحينما يمسك بزمام الأمور يغمرنا بطفح ومتاهات عن الحقائق
لكن حقيقة بيللو أنه عاشق وحيد على مدار العمر
لم ير الرغبة إلا في وجهه المشدود على مرآة الاستمناء
وحينما اكتشف الأمر وعزت عليه نفسه أدمن البكاء على صدور الغانيات!

بولينت هذا النحات التركي يعشق صلب تماثيله وتفريغ أجسادها الجبسية يحفر جراحا في صدورها وسيقانها ثم يملؤها بالخبز، يمرمغها في الخمر يلعق دمائها ويعلقها على الحوائط. يغشيها بنظرات شمسية ويكتب عليها: الصلب شريعة الناس حتى يصلون إلى المجد. الصلب طريق للاعتراف بك إن نجوت. إن حييت، الصلب تنكيس الآخر بالذنب. حماية على مدار التاريخ لهؤلاء المنتشين بهستيرية كأقزام سيد الخواتم بين السادية والمازوخية لكن بولينت خاف أن يُدق، أن يلقى حتفه كجموع المصلوبين في صمت فوق مذبح هذا العالم المتمسكن بشعارات عن العقل والعدل!

في الآونة الأخيرة نشاهد البابا الحكومي في التلفاز يتحدث عن حرب النجوم
يضع عزرائيل على فخذه ويمسح شعره، يقبله بعطف على خذه الأيمن
نتذكر أحاديثه عن فن البيض. عن عشق الثوم. لعبة الأسكواش، والجوائز الذهبية
محاربة مصاصي الدماء. تدبير الخطط الخمسية. خطة الربع قرن
سباق الجوع الرياضي. مدح الشارعين في القضاء على جراثيم السكان. لا يهم
الكاهن الأكبر يصنع دستورًا للحياة. يفتح ويغلق الأبواب. يشيد معابد الوهم
يعلن نفسه إلها ورب الأرباب. من ذا الذي يقدر عليه حينما يخزن ويقدر المواقيت
حينما يضاجع ثرثرة المثقفين، ويعيد خصومه إلى أوكارهم الإرهابية. أو حينما يطير في الهواء

حينما ضربت الشرطة ممادو شعر بالامتنان وأزاح عن عقله التخوم هجر متجره وماله، أطلق العنان لحاله. راح يجوب شوارع المدينة بشعر أشقر ولحية سوداء يدوس أعباء وهموم الحياة يفرش أوراق التاروت، يخطط بها أكاديميات، مشروعات صحراوية جمعيات، نجاحات تجعله يكل ثم يذهب إلى مريداته. يسحرهن يضحكهن بنجمه الساطع. ينصحهن بكتابة مذكراتهن على أوراق الشاي يضاجعهن، يأخذهن معه إلى موطنه القديم حتى يمل. يزهد في الأشياء ثم يتناول في صومعته حبوب الإحباط، ويقول أنه يولد كل يوم من جديد!

ماريا الزوجة الإيطالية وقعت في غرام شاب إفريقي أجرب. انتقال مروع بمركب هوائي
طيران عبر برج بيزا العازف عن الاستقامة. وصول إلى الشاطئ الأرجواني
غرام المعجنات. قبلات الاسباجتي وتاليتيلي الحبار. تلطيخ شفاه وردية
عزف على طبول أحشاء الماعز. رقصات الكماسوترا والتنترا. مسرح أفريقي
ندم ماريا سيكون مبكرا. لعنة تصب في أغانيها عن وحدة الثقافة الإنسانية
اعتراف مخضرم بالفروق البربرية. لمعان أنيابها العنصرية. عودتها عبر مياه المتوسط
تمرُّغٌ في عسل الغرب المصنوع من البنجر. ستقتص ماريا كل أوهامها عن قصب السكر
لكنه سيكون قد ابتلع كل أطياف قربها. وسيعرف في كرهها شيئا يجعله على ما لا يرام

خالد طوبار

هو روائي ومترجم، درس علم المصريات والعلوم الإسلامية في القاهرة وبرلين، وأسس العديد من المشروعات الثقافية التي تقوم على التواصل بين الثقافات.

صدر له بالعربية روايتان وهما «برج الحمام» و«كتاب الزمان». وله عدة أعمال مترجمة عن الألمانية منها «خوف الحارس من ضربة الجزاء» للكاتب الألماني بيتر هاندكه، و«زهور الزينة الحزينة» وهي مجموعة قصصية من تأليف فولفجانج بورشرت، ومختارات قصصية من الأدب الألماني المعاصر «الحب على الطريقة الألمانية» ورواية «نيران المخيم» ليوليا فرانك، والعديد من قصص الأطفال المترجمة. كما ترجم «رباعيات صلاح جاهين» إلى الألمانية، وكتب بالألمانية مسرحية بعنوان «لعبة الشطرنج العربية».